المجتمع الإسلامى
ودوره الحضارى عبر التاريخ

النسبة بين الأمة والدولة فى حضارتنا

لم يصنع الحكام حضارتنا، ولم يكونوا إلا جزءاً من أجزاء تاريخنا . . . لقد كانوا يركبون الموجات التاريخية المتلاحقة، لكن هذا (الزَبَد) كان منفصلاً فى أكثر الأحايين عن القيعان . . .

فهنالك فى الأعماق . . . كانت تتفاعل القوى الصانعة للحضارة، وكان نور حضارتنا يمشى فى إطار قيمه وعقيدته، لا يأبه كثيراً بمن ركب الموجة، وإن اضطر - فى أحايين - إلى أن يهدئ من تفاعله، ويبطئ من سرعته، حتى يهوى بعض الراكبين الثقلاء !!

إن الذين ظلموا حضارتنا هم الذين وقفوا على الشاطئ يرصدون من يركبون الأمواج . . . ويتحدثون عن (نظم الحكم) و (أساليب انتقال السلطة) و(أنواع الظلم للرعية)، و (الخلافات بين الأسر الحاكمة) . . . !!

لكن الحضارات ليست هنالك فى هذا المستوى . . . وإلا لانتهت بعد قرن أو قرنين، ولباعها هؤلاء الراكبون بثمن بخس فى بعض مساوماتهم السياسية . . . !!

إن الحضارة فى الأعماق حيث يوجد (ما ينفع الناس)، وحيث تتعاون خمائر الحضارة فى معركة الإبداع وصياغة الحياة، كما يليق بإنسانية الإنسان . . .

فى الحضارة المتفاعلة . . . كان القضاة، والمحتسبون، والدعاة، والعلماء، والمفكرون، والمهنيون، والتجار، والزراع، والأدباء، والشعراء، والفنانون، والمعلمون . . . وبعض الحكام، وبعض الوزراء، وبعض الشُّرُط، وبعض الحُجَّاب والرسميين . . . كان كل هؤلاء يصنعون الحضارة . . .

وكانت الحضارة تمضى بالدفعة الروحية والشرعية، مواصلة تقدمها فى مجاليها الثابتين :

ـ **مجال حفظ الحياة :** من خلال حماية النوع، والذات، والعرض، والمال، والعقل، والدين . . .

ـ **ومجال تحقيق تقدم الحياة وتطورها :** من خلال نشر التعليم، ومساعدة الفكر والإبداع فى المجالات المادية والمعنوية . . .

وكانت شريعة الإسلام القائمة على عقيدته وأخلاقه تنساب فى كل الخلايا الفاعلة فى الحياة، مثلما ينساب الضمير والعقل، ومثلما ينساب الماء والدم . . . فإذا ضعف تأثير الضمير قامت الحدود لتمنع الصدام بين الأجزاء الفاعلة فى تيار الحياة . . . «تلك حدود الله فلا تعتدوها» .

لم يكن مبدأ الاستيراد الاستهلاكى قد عرف بعد، وحتى وسائل المواصلات لم تكن تسمح بالاعتماد على الاستيراد فى الحياة . . . وكانت هذه الجريمة لم تصل ـ بعد ـ إلى أن تكون ظاهرة يعرفها الجميع، ويتحدثون عنها، بل ويسكتون عنها، ويستثمرونها لصالح بعض النظم الحاكمة . . .

بل هى ـ فى الحق ـ أكبر جريمة أن يعيش شعب مستهلكًا مستوردًا عالة على شعوب أخرى . . . إن مثل هذا الشعب لا يجوز أن يسمى نفسه مستقلا، ولا أن يطالب بحقوق، ولا أن يعتبر نفسه واحدًا من ركاب قطار الحضارة ولا صُنَّاعها، حتى لو تَغَنَّى بماضيه الزاهر وأسلافه الأمجاد!! . . . فعلى امتداد ما يربو على اثنى عشر قرنًا كانت شرائح الأمة الإسلامية تصنع الحضارة لتحقق حفظ الحياة، وتطور الحياة !!

وكانت النظرتان ـ العَجْلى والمتأنية على السواء ـ تؤكدان أن هذه المجتمعات الإسلامية (رسميًا) هى مجتمعات إسلامية ـ أيضًا ـ (عمليًا وواقعيًا) . . .

إنها لا تتنفس الإسلام فى رمضان، أو فى ذى الحجة وحسب؛ بل تتنفسه وتحتكم إليه وتنصاع لأحكامه وأخلاقه على امتداد العام كله . . . . إن الزمان كله يصاغ صياغة إسلامية !!

وحول مكة والمدينة والقدس تلتف كل عواصم المسلمين ومدنهم، وقراهم؛ محاولة أن تقترب من هذه الأماكن المقدسة فى سلوك أهلها، وفى تزكية الضمير والوجدان الإسلاميين !!

فالمساجد تقوم بدور الجذب حول (مكة) المحور الأساس، والعلماء والمسلمون يغرسون فى العقل والوجدان أن الأرض كلها مسجد، وأن الإسلام واحد، والرقابة الإلهية العليا، والشرعية الدنيا واحدة . . . وأن المسلمين أمة واحدة، وأن المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يسلمه . . . إن المكان فى عالم الإسلام يصاغ صياغة إسلامية !!

* * *

عشرات الألوف من المساجد تنْداح حتى فى البلاد التى لا يسكنها إلا مئات من المسلمين . . .

ومئات الألوف من العلماء والمربّين ينتشرون فى العالم، ينسجون العقول والضمائر بمبادئ الإسلام . . . وكلهم يتكلمون لغة إسلامية واحدة نابعة من كتاب الله وسنة رسوله (القولية والفعلية) .

وحلقات القضاة التى فى المساجد أو خارجها تحكم حركة الحياة، وتعطى كل ذى حق حقه، وتؤصل التعاون، وتمنع الصراع، وتقف ـ فى سبيل تحقيق الغاية ـ حتى فى وجه الحكام !!

ومحتسبون ودعاة هنا وهناك، رسميون وغير رسميين، يلبسون أثواب المحتسبين وشاراتهم، أو أثواب التجار والحرفيين والزراع . . . وكلهم يتعامل مع

الإسلام وكأنه المسؤول عنه، وعن تحقيقه فى حياة المسلمين، ونشره بين غير المسلمين.

وبهؤلاء وأولئك، وغير هؤلاء وأولئك، تمور الحياة، وتتفاعل عناصر الحضارة، ويظهر العلماء والحكماء، والرياضيون، والفلكيون، والفقهاء، والأطباء وغيرهم...

موسوعات ضخمة لم تتوفر لأية أمة، تُسمى بكتب التراجم والطبقات والرجال والأنساب؛ تضم بعض ما وصل إلينا عن أولئك العلماء الأعلام والدعاة إلى الإسلام.

إن هؤلاء هم أبرز صنَّاع الحضارة، بل إن هؤلاء هم الذين حموا ثغور الحضارة الإسلامية، وتحملوا الثمن الباهظ الذى دفعته الحضارة الإسلامية من جراء الانحراف الذى وقع فيه بعض الحكام.

كان هؤلاء العلماء والصناع والدعاة يتفاعلون فى مستواهم ـ صابرين محتسبين ـ وكان الآخرون يمضون فى طريقهم...

وكان بين المستويين خطوط تفاعل، وخطوط تصادم، ومناطق حياد!!

ففى العهود التى يدرك فيها جهاز الحكم والدولة أهمية الاحتكام للإسلام، وقيمة ثقافة الإسلام وحضارته؛ كانت الحضارة تتوهج متفاعلة أشد ما يكون التوهج، وكانت الأمواج الحضارية تصفو وتهدأ، وتنطلق إلى غايتها مترجمة قوة الإسلام وأصالته.

وحين يجنح الحكام إلى الانحراف والظلم والاستبداد؛ كان الصدام يقع، فى دائرة النفوس والضمائر فى أكثر الأحايين، وفى دائرة السلاح فى أقل الأحايين... لكن التيار كان يمضى ملتزمًا بالعقل، واعيًا بالمأزق، معتصمًا بمواقعه، مؤثرًا الفعل الحضارى على الصدام السياسى...

وثمة مناطق حياد كانت تمضى، وهى الأكثر والأغلب، لا تكاد تقترب من تأثير الحكام إلا فى بعض المعابر القليلة... فقد كان القضاة والدعاة والزهاد

والمفكرون والمخترعون يبتعدون ـ قدر الاستطاعة ـ عن مناطق الصدام، وكان الحكام ـ فى بعض الأحايين ـ هم الذين يحتاجون إليهم، ويسعون إلى أن يقترب هؤلاء منهم، ويُجْرون عليهم النفقات، ويُجْزلون لهم الأعْطيات !!

كانت هناك بالتالى أمة إسلامية . . . وكانت هناك مؤسسة حاكمة اسمها الدولة . . . أو بتعبير آخر كانت هناك (أمة دعوة) تعى رسالتها ودورها الحضارى، وتصوغ حياتها ـ فى هدوء ـ وفق شريعة الإسلام . . .

وكانت هناك مؤسسة حكم تقوم على حراسة الإسلام، وقد تبتعد أحيانًا عن تطبيق أحكامه .

والنسبة بين الأمة والدولة ؛ كالنسبة بين الأعماق والسطوح، وبين الجماعة والفرد !!

فالأمة الجماعة (جماعة المسلمين) أو (جماعة الدعوة) أو (أمة الدعوة) هى مجموع الأمة ؛ التى تزيد نسبتها على تسعة أعشار الفاعلين فى الحضارة، والدولة هى (أفراد) و (هيئات) أجيرة تمثل عُشْر الفاعلية الحضارية .

(وعلى طول تاريخ الجماعات الإسلامية ـ وعلى اختلاف أوطانها وأزمانها ـ ظلت الجماعة قائمة لها قوتها واختصاصاتها ومسؤولياتها إلى جانب الدولة . فمعظم المشكلات والمنازعات كان الناس يحلونها فيما بينهم بالتراضى والتفاهم أو التنازل المتبادل . . . ومن هنا نفهم كيف أن مدنًا كبيرة ـ كالفسطاط أو البصرة أو الكوفة ـ كان لها قاض واحد ؛ ولم يكن هذا القاضى ـ مع ذلك ـ مرهقًا بالقضايا ؛ لأن الناس كانوا لا يلجئون إليه إلا فى حالات الضرورة القصوى . وكذلك كانت المساجد ورعايتها دائمًا من اختصاص الجماعة، يبنيها الأثرياء أو الناس العاديون، وتُوقف عليها الأموال ؛ لأن المساجد التى كانت تبنى بأموال الخلفاء والسلاطين كانت قليلة العدد، إلى جانب أنها كانت فى بعض الأحيان مساجد سلطانية ؛ لم تخل من قصد إلى الزهو وإظهار الغنى والقوة، والرغبة الشخصية فى بقاء الذكر) .

(ومثل ذلك يُقال عن التعليم ؛ فقد كان من شأن الجماعة، وقلما أنفقت الدولة شيئًا عليه فى شرق الدولة الإسلامية قبل العصر السلجوقى فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى، باستثناء عطايا ؛ كان الخلفاء والسلاطين يقدمونها للظاهرين من أهل العلم على سبيل المكافأة. وكذلك كان الحال مع مواصلات البر والبحر)[1].

إن هناك قضية خطيرة لم يفهمها بعض الناس، وبسبب عدم الفهم ـ هذا ـ أخطئوا فى فهم الموازين الصحيحة لتقويم حضارتنا الإسلامية. . . !!

إنهم لم يفهموا (العلاقة) ولا (النسبة) بين الدولة والأمة، أو الدعوة والدولة فى الحضارة الإسلامية، بل سقطوا فى تشريح حضارتنا بالمبضع نفسه الذى شرحوا به الحضارات الأخرى، ولا سيما الحضارة الأوروبية.

ـ ومن هنا جاء تقويمهم جائرًا وفاسدًا. . .

إن (الدولة) ـ فى التجربة الأوروبية ـ منذ ظهرت وحتى العصر الحديث تشير إلى سلطات مطلقة، ولكنها متمركزة ضمن حدود، بيد أنه لا يمكن التمييز بين مهمتها وطاقتها ؛ فالخدمات التى تؤديها تختلط مع الامتيازات التى تمارسها، وجميع أشكال العمل التى تحت تصرف الدولة هى أجهزة السلطة ووسائل الحكومة. والشرطة تحمى الأفراد، ولكن امتيازات وزير الداخلية كبيرة، والتعليم العالى ينمى المعرفة ؛ ولكنه يوجه الأفكار، والمساعدة الاقتصادية والاجتماعية التى توفرها الدولة الحديثة تنطوى على مركزية مالية متزايدة[2]. . .

فهنا فى جسم الحضارة الأوروبية، وبالتالى تاريخها وحضارتها، كان دور الدولة هو دور الرأس والعقل والدم. . . إنها تنساب فى الكيان كله، وقد حاولت الكنيسة منافستها، والاشتراك معها فى صياغة المجتمع وتوجيهه، وقد نجحت فى ذلك حتى نهاية العصور الوسطى الأوروبية، وإن كانت قد منيت

(١) د. حسين مؤنس: عالم الإسلام، ص: ٢٥، ٢٦، طبع دار المعارف بمصر، طبعة أولى.
(٢) جاك وندبو دوفاير: الدولة، ترجمة: سموحى فوق العادة، منشورات عويدات بباريس بيروت، ص ٦ ـ ٧ (بتصرف).

بفشل ذريع بعد فشل الحروب الصليبية ؛ التى جرت الكنيسة المجتمعات الأوروبية إليها . ومع بداية العصر الحديث أفل دور الكنيسة ، وانفردت الدولة خلال القرون الأربعة الأخيرة بالقيادة والتوجيه .

وبعد صراع مرير تمكنت الدولة والشعب فى أوروبا من الوصول إلى صياغة خاصة بالحياة لا سيطرة فيها على الإنسان إلا للدولة . . .

لقد نُحِّى كل دور آخر . . . وأصبح القانون هو كل شىء ، وأصبحت الدولة حارسة القانون . . . وابتعد الدين ـ وبالتالى الكنيسة ـ عن الحياة !!

* * *

لكن الأمر فى الحضارة الإسلامية مختلف كل الاختلاف . . . فالإسلام لا تحميه طبقة معينة ؛ بل هو مسؤولية الأمة كلها ، وليست المساجد إلا دوراً للأمة كلها ، وهى ذات وظيفة شمولية ، والعلماء مجرد موجِّهين ومعلمين ، لا يملكون أدنى سلطة . ولم يوجد فى الحضارة الإسلامية صراع بين مؤسسات خاصة بالدين ، ومؤسسات خاصة بالدولة ؛ بل كانت الأمة كلها تستنكر انحراف الحكام . . . وعندما تيأس من تقويم انحرافهم كانت تبتعد عنهم ، وتتولى هى بنفسها صناعة حضارتها وحفظ عقيدتها ، منددة ـ قدر الاستطاعة ـ بظلمهم ، عاملة ـ فى حدود عدم الاشتباك معهم حتى لا ينهدم البناء ـ على إصلاحهم أو التخلص السلمى منهم .

إن النسبة هنا لنفوذ الدولة وآثارها كانت محددة ومرصودة ومعزولة . . . وحتى العلم لم يكن يؤخذ باطمئنان إلا من رجال الدعوة . . . لا من علماء السلطة . . . وكانت منزلة الحسن البصرى ، وعبد الله بن المبارك ، والليث بن سعد ، والعز بن عبد السلام ـ وعشرات غيرهم ممن عرفتهم حضارتنا ـ أعلى منزلة من حكام عصرهم ، مع عظمة بعضهم . . .

وهذه النسبة منذ قامت الأمة بأمرها ، ووقع الانفصال بين السياسة والحضارة ؛ لم تزد ـ كما ذكرنا ـ عن عُشْر الفاعلية الحضارية . . . وتحملت الأمةُ

المسلمة ـ مبتعدة قدر الاستطاعة عن حكامها إما ورعًا أو خوفًا ـ عبء الفاعلية الحضارية الباقية !!

أخطاء فى الرصد التاريخى والتقويم

كانت الأمة الإسلامية ـ جماعة وحكومة ـ شيئًا واحدًا فى عهد الرسول ﷺ، والراشدين... وكانت النسبة بالتالى مختلطة، فالحكومة هى الأمة، والأمة مندمجة فى الحكومة، يسعى بذمتهم أدناهم.

وجاء بنو أمية فقدموا خيراً كثيراً للإسلام والمسلمين، ووسعوا دولة الإسلام بفتوحاتهم العظمى... ولكن بعض خلفائهم غلَّبوا (الدولة) و(أساليبها) و(مصالحها) على حساب المجتمع و(الأمة)، ونتج من جراء تقوية (الدولة) على حساب (الأمة) فى بعض الممارسات والأخطاء أن تحرك فى دولتهم الصراع العنصرى بين القبائل العربية؛ ليضربوا المضرية باليمنية، ثم اليمنية بالمضرية، وتسلط على الأمة مجموعة من الجبابرة؛ مثل الحجاج بن يوسف، وزياد بن أبيه، وآل المهلب، وضعفت العدالة فى توزيع المال العام.

ومهما كانت الأعذار التى تلتمس لهم فقد وقعوا فى أخطاء آذت الضمير الإسلامى، وجعلت وجدان الأمة يكاد ينفصل عن الدولة.

وهذه الممارسات وغيرها لم تُقْعد الأمة عن تحمل عبء الرسالة الإلهية والفاعلية الحضارية، وساعد على تقوية هذا الاتجاه أن التنظيم الاجتماعى للأمة الإسلامية كان لا يدع للحكومة مجالاً كبيراً فى حياة الجماعة، فكل ما نسميه نحن اليوم بالمرافق والخدمات كان من مسؤوليات جمهور الناس دون الحكومة...[1].

وجاءت الدولة العباسية فمشت على خطى الأمويين؛ بل إنها فقدت بعض مؤهلات بنى أمية، كما فقدت بعض الأراضى الإسلامية التى كانت تحت بنى أمية أيضًا، وظهرت دول مستقلة عنها مثل: بنى رستم والأدارسة وبنى مدرار فى

(١) د. حسين مؤنس: عالم الإسلام، ص: ٢٠٩.

المغرب، وبنى أمية فى الأندلس . . . وبالتالى ازدادت الأمة ابتعاداً عنها واعتماداً على نفسها، حتى فى ميادين الجهاد التى تقاعست فيها الدولة إلا فيما يمس سيادتها المباشرة، وتألقت جماعات (المطوعة) والمرابطين على الثغور، والمحتسبين بجهادهم . . . وبقى أمر الدولة محصوراً فيما يثبت قواعدها، وفى الحماية الخارجية لأرض الإسلام التى تقع تحت أيديها، وقد تعلم الناس كيف يديرون أمورهم ويحلون مشاكلهم دون حاجة إلى عون من حكومة، خصوصًا عندما ساءت الأحوال وتدهورت خلال العصر العباسى الثانى؛ ففى العراق، ومصر، والشام - مثلاً - تحول الحكم خلال القرن الرابع الهجرى وما بعده إلى أداة، وظيفتها الرئيسة جباية المال لسد حاجات رجال الدولة وجندهم [1] .

وقد تطورت الأمور فاتجهت الظروف السياسية إلى تسلط عناصر محترفة من الجند على الحكم كالخراسانيين الإيرانيين، ثم الأتراك، ثم المماليك . . .

ومع هذا التطور تخلى العرب عن لعبة الصراع على الحكم، واتجهوا إلى بناء الحضارة الإسلامية، فقدموا إنجازات طيبة للحضارة الإسلامية، بعد أن أضاعوا قرونًا كاملة فى المشرق والأندلس فى الصراعات الدموية تحت شعار أحقيتهم فى الحكم!! وارتفع شأن أصحاب الوظائف المدنية أو (أرباب الأقلام) - كما كانوا يُسَمَّون - حتى أصبحوا يناظرون الحكام والقادة والمحاربين، أو (أرباب السيوف). وعن هذا الطريق وصل الأفراد من أبناء الجماهير إلى نصيب طيب من السلطان والجاه، فإلى جانب أصحاب السلطان والقادة والجنود وحكام النواحى - وكلهم كانوا من الأجناس التى احترفت الحرب واحتكرت شؤون الحكم فى العالم الإسلامى - قام «الوزير» و «الكاتب» و«كتّاب ديوان الإنشاء»، و«أهل الحساب والشؤون المالية»، و«القضاة»، و«الفقهاء»، و«أهل العلم» و«الشيوخ»، وكان هؤلاء قابضين على نصيب كبير من زمام الحكم - فعلاً - وهذا النصيب هو الذى استطاعت أن تصل إليه الجماهير فى مختلف بلاد الإسلام [2] .

(١) المرجع السابق: ص ٢١١.
(٢) المرجع السابق: ص ٢١٢.

وبهذا عرف أهل العلم من أبناء الشعوب الإسلامية كيف يشقون لشعوبهم طريقًا واسعة إلى القوة والجاه وسط تطاحن الأتراك والمماليك، ممن استأثروا بالحكم فى الجناح الشرقى لعالم الإسلام كله. وكان لوصول أهل العلم إلى ذلك الجاه أثره الطيب فى تحسين الأحوال العامة فى المجتمع، فهم الذين ظلوا يتمسكون بعقائد الإسلام وشريعته، وعلومه، ومبادئه، وأخلاقياته، وتراثه المعنوى، ويذكرون الناس بالمثل الإسلامى الأعلى الذى ينبغى السعى لإدراكه!![1].

بل إن غير المسلمين كانوا يجدون فى المجتمع الإسلامى الفرصة المواتية للعمل الحضارى أكثر مما يجدون فى أى مجتمع آخر فى عالم العصور الوسطى...

وعندما تحدث (ول ديورانت) عن العلوم عند اليهود ذكر أن العلوم الطبيعية والفلسفة عند اليهود تكاد أن تنحصر كلها فى بلاد الإسلام، وذلك أن المقيمين فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى - كما يقول ول ديورانت - كانوا بمعزل عن جيرانهم؛ ولهذا لجئوا إلى التصوف والخرافات وأخذوا يمنون أنفسهم بمجىء مسيح ينقذهم مما هم فيه، وتلك كلها ظروف هى أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيها العلم[2].

أما فى العالم الإسلامى فقد وصل اليهود إلى أرقى المناصب، وكادوا يحتكرون حرَفًا بأكملها لهم، واستفادوا من علوم المسلمين الطبيعية، وقد سيطروا على فن الطب فى مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها عام (١١٦٥م)[3].

لكن المشكلة أن بعض كتب التاريخ العام ظلمت أعلام حضارتنا، ولم ترصد حياتهم كما رصدت حياة الحكام والعساكر... وهذا صحيح، بل هذه هى مشكلة منهج كتابة تاريخ الأمة الإسلامية حتى اليوم.

وحتى كتب التاريخ الحضارى، فقد صيغت بطريقة مجملة، فلم تتتبع حياة صناع الحضارة بالتفصيل الكافى، وقد نجد ترجمة عالم كبير عاش سبعين سنة، وقدم عشرات الكتب، وخرَّج أجيالاً عالمة مجاهدة صانعة، ترد فى مساحة لا

(١) المرجع السابق، ص: ٢١٤.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤: ١٠٨، طبع مصر.
(٣) المرجع السابق ١٤ / ١٠٩-١١٠.

تزيد على صفحة أو صفحتين . . . وقد تكون المعلومات التى فيها مركزة على النواحى العادية التى يكاد يشترك فيها كل العلماء، دون أن تقدم هذه المعلومات رحلة معاناته، وخلاصة تجاربه، وأبرز آرائه، وإطاره الفكرى العام، وإضافاته العلمية والفكرية بطريقة فوق المستوى الإحصائى والببليوجرافى . . .

يضاف إلى هذا أن الكتب التى عالجت - بحق - تاريخنا الاجتماعى والثقافى والاقتصادى، قد اتجه بعضها - على قلته - اتجاهًا متميزًا بتأثير بعض الضغوط الخارجية، فجاء كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى - مثلاً - تلبية لتوجيه شعوبى وعقدى ضد العرب، وضد أهل السنة، ولخدمة الحكم البويهى الشيعى الذى كان قد نجح فى التسلط على الخلافة العباسية.

لقد كان أبو الفرج الأصفهانى (ت ٣٥٦هـ) من أحفاد مروان بن محمد من بنى أمية، وكان يعيش تحت مظلة السيطرة البويهية على الخلافة العباسية . . . وخوفًا من أن يحسب على بنى أمية، ويقال إنه ناصبى يعادى آل البيت الذين يرفع شعارهم بنو بويه . . . لجأ إلى المغالاة فى حب آل البيت، وشوه تاريخ بنى أمية بكل ما يستطيع من وسائل، وقد كتب الأغانى بأمر من وزير معز الدولة البويهى (إبراهيم بن عبد الله بن زيد) الذى كان أبو الفرج من أقرب ندمائه الملتصقين به، وكان الناس فى ذلك العهد - كما يقول ياقوت الحموى فى ترجمته لأبى الفرج - يحذرون لسانه، ويتقون هجاءه، ويصبرون فى مجالسته ومعاشرته ومؤاكلته ومشاربته على كل صعب من أمره؛ لأنه كان وسخًا فى نفسه ثم فى ثوبه ونعله (. . .)[1].

ومع ذلك فإن مؤلفات ابن قتيبة وابن عبد ربه، على ما فيها من تجاوزات - بالإضافة إلى كتب أخرى - كلها رصدت الحياة الاجتماعية؛ لكن كتب أبى الفرج تمثل - مع قدر كبير من التحفظات - أكثر مؤلفات رصدت الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية للأمة الإسلامية فى عصره، وحسبنا أن نذكر مؤلفاته - غير الأغانى - لنعرف كيف أنه تطرق إلى موضوعات كثيرة غير التاريخ السياسى،

(١) ياقوت : معجم الأدباء، ص : ١٣، ص ١٠١، (ترجمة : ياقوت)، طبع بيروت.

فمن مؤلفاته: مقاتل الطالبيين، وكتاب أخبار القيان، وكتاب الإماء الشواعر، وكتاب المماليك الشعراء، وكتاب الأدباء الغرباء، وكتاب أدب السماع، وكتاب أخبار الطفيليين، وكتاب مجموع الأخبار والآثار، وكتاب الخمَّارين والخمَّارات، وكتاب الفرق والمعيار فى الأوغاد والأحرار، وكتاب دعوة النجار، وكتاب أخبار جحظة البرمكى، وكتاب جمهرة النسب، وكتاب نسب بنى عبد شمس، وكتاب نسب بنى شيبان، وكتاب نسب المهالبة، وكتاب نسب بنى تغلب، وكتاب الغلمان المغنين، وكتاب مناجيب الخصيان؛ عمله للوزير المهلبى فى خصيين مغنيين كانا له. وله بعد تصانيف جياد كان يصنفها ويرسلها إلى المسؤولين على بلاد المغرب من بنى أمية، وكانوا يحسنون جائزته، لم يعد منها إلى الشرق إلا القليل [1].

وهناك قدر من التحيز الفكرى يمكن أن يوجَّه - بدرجة ما - إلى كتب الجاحظ، مع أنها من أفضل الكتب فى التاريخ الاجتماعى الإسلامى.

وقد تكون أنقى الكتب وأوفاها فى هذا المجال، كتب الرحالة والجغرافيين كابن بطوطة، والبكرى، وابن جبير، وابن فضلان، ومؤلفات الحسبة، وكتب الفتاوى والفقه، والكتب المتخصصة فى السياسة الشرعية، والأموال، والتجارة، والمسالك، وطبائع الملك، وشؤون المعاش، وأنواع الصناعات مثل كتب الأطباء العلمية ومؤلفاتهم فى الصيدلة، والحيل والفلك... فضلاً عن كتب التراجم والرجال والطبقات التى تعتبر من أكبر المناجم التى يُغترف منها فى حقل التاريخ الحضارى للأمة الإسلامية... ذلك التاريخ المظلوم الذى يحتاج إلى أن تتجه إليه الجهود - فردية وجماعية - من جديد... إبرازاً للتاريخ الحقيقى للمسلمين، وتحديداً للمكانة الحقيقية لشريعة الإسلام فى تاريخ المسلمين، وفى صياغة حياتهم، وصناعة تطورهم وحضارتهم.

ومع هذا الظلم الذى لحق بالتاريخ الحضارى للأمة الإسلامية، ومع أن كتب التاريخ الإسلامى بصفة عامة ركزت على التاريخ السياسى الذى يتصل بنسبة قليلة محددة تمثل البنية الفوقية الحاكمة...

(١) ياقوت: معجم الأدباء، ص: ١٣، ص ٩٩ - ١٠٠، (ترجمة: ياقوت)، طبع بيروت.

ومع هذا فإن هذه الكتب لم تخل من تقرير لحقيقة الدور الذى قام به صناع هذه الحضارة من علماء ومفكرين، وإن جاء ذلك بطريقة غير مباشرة وإجمالية . . . فعندما نقرأ الكتب الأساس للتاريخ الإسلامى ـ ابتداء من الطبرى، وحتى تاريخ الجبرتى ـ نرى خط العلماء موازيًا ومضاهيًا لخط الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم.

وباستثناء الحكام الصالحين الذين لم يخل منهم عصر من العصور، ولا دولة من الدول كمعاوية، وعبد الملك، والوليد، وعمر، وهشام فى الدولة الأموية، وأبى جعفر، والمهدى، والرشيد، والمأمون، والمعتصم فى الدولة العباسية. وباستثناء الممتازين فى الأندلس مثل الداخل، وهشام الرضا، وعبد الرحمن الأوسط والثالث، والحكم المستنصر . . . والممتازين فى المغرب كبعض ولاة الأغالبة، وبنى رستم، والأدارسة، وبنى واسول ؛ فضلاً عن معظم المرابطين وبعض الموحدين . . . وبعض ولاة بنى مرين، وبنى حفص، وبنى زيان . . .

وباستثناء بعض الممتازين ـ كذلك ـ وهم كثيرون فى السلاجقة، ثم كبار الأتابكة الحكام والعلماء مثل عماد الدين زنكى، ونور الدين محمود، ثم صلاح الدين الأيوبى الكردى، ثم كبار المماليك من أمثال سيف الدين قطز، وركن الدين بيبرس، وسيف الدين قلاوون، وابنه الناصر محمد وغيرهم . . . وباستثناء بعض الحكام العثمانيين وعلى رأسهم محمد الفاتح، والسلطان عبد الحميد . . . باستثناء هذه الطبقة من كبار الخلفاء والسلاطين وأهل الحكم، نجد أن معظم ما نال الشعوب الإسلامية من خير كان الفضل فيه راجعًا إلى أهل العلم، سواء من ولى منهم المناصب، ومن اكتفى بجاه العلم وقنع بركن فى دار أو فى مسجد ؛ ومضى يدرس، ويؤلف، ويعلم الناس، ويخاطب أهل الحكم فى مصالح المسلمين، ويرد الأذى عنهم [1] .

---

(١) د. حسين مؤنس : عالم الإسلام، ص : ٢١٤ـ٢١٥ .

العلماء العاملون هم قادة حضارتنا

لقد فهم العلماء فى حضارتنا أنهم مسؤولون عن الأمة، وأنهم داخلون فى أولى الأمر، ويؤكد ذلك أن التفسير الشائع فى حضارتنا لقوله ـ تعالى ـ : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، أن أولى الأمر هم «الرؤساء وأهل العلم»[١]، ومن هنا كان مشايخ الأزهر وأساتذة القرويين والزيتونة هم طلائع النهضة، وأبطال الاستقلال ودعاة الأصالة، والمحافظين على مصالح الناس.

وقد أنكروا على الولاة الظلمة، ووقفوا مع العامة، وكانوا سببًا فى إقالة ولاة وفى تثبيت آخرين[٢].

وبينما ارتبطت الكنيسة ورجالها فى التاريخ الأوروبى بالعداء للشعب، والوقوف مع السلطة ومقاومة الفكر والحرية، والتقدم؛ كان الأمر على العكس من ذلك فى حضارة الإسلام، فقد كان علماء الإسلام هم قادة الشعب، ورواد التحرر والنهضة الحقة... وكان طبيعيًا أن يكون الأمر كذلك؛ لأنهم جزء من الشعب لا يملكون سلطة كهنوتية، ولا يتفوقون على الشعب إلا بعلمهم وجهادهم الأكبر والأصغر... بينما الشعب كله (رجال دين)، وبالتالى فالشعب مثلهم يتحمل ـ قدر طاقته ـ جزءاً من المسؤولية، وله الصلاحيات الكاملة فى أن يحاسبهم، ويرفض عملهم وفتاواهم إن خانوا مبادئ الإسلام، وأصبحوا مجرد موظفين لدى السلطة، داخلية كانت السلطة أو خارجية.

وقد كان الشعب دائمًا يشعر بمسؤوليته عن الحضارة الإسلامية، وكان دائمًا يملك القدرة على التفرقة بين (علماء الإسلام) و (علماء السلطان)، و(فقهاء الحق)، و (فقهاء المصلحة)... وكانت بغداد فى عصر عظمتها تخرج كلها لتستقبل العالم الزاهد المجاهد عبد الله بن المبارك بدرجة أكبر مما تستقبل به خليفتها، حتى إن أم الخليفة عجبت للأمر وقالت: هذا هو الملك... إنه ملك لا تدفع إليه منفعة مالية ولا شرطة عسكرية !!

---

(١) انظر مادة «أمر» فى لسان العرب.

(٢) انظر جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر (نماذج من هؤلاء العلماء المجاهدين فى العصر الحديث).

كان نسيج المجتمع كله يبنى على الإسلام . . . وحتى الفئة الحاكمة، كان للإسلام وجود فى حياتها، على الرغم من تفلت بعضها فى بعض الأحيان . . . أما الشعب الذى يصنع الحضارة فقد كانت القوانين، والنظم والتقاليد التى تحكمه مستقاة من الإسلام .

وإذا كان من الضرورى للمجتمع الإنسانى، ولأفراد المجتمع من ضوابط يتقيدون بها، وتحكمهم بوصفهم كائنات اجتماعية ؛ فإن الضوابط والقوانين والأخلاقيات وشبكة العلاقات الاجتماعية التى كانت تحكم المجتمع الإسلامى هى الشريعة الإسلامية، ومهما تكن ضغوط بعض الحكام فإن المجتمع كان يحمى شبكته من سلبياتهم، ويقاوم بالوسائل الإسلامية المشروعة انحرافاتهم، وقد يتمكن من تعديل مسارهم، وتقويم اعوجاجهم، مثلما نجح العز بن عبد السلام فى إصلاح شأن المماليك، ومثلما نجح - قبله - رجاء بن حيوة من إصلاح شأن سليمان بن عبد الملك، وحمله على تولية عمر بن عبد العزيز، ومثلما نجح المنذر بن سعيد البلوطى - فى الأندلس - فى إصلاح بعض أخطاء الخليفة الأموى عبد الرحمن الثالث (الناصر) .

وإذا كان المجتمع الأوروبى قد خضع فى علاقاته لنوع من الميكافيللية، والمادية التى جعلته يستخدم الدين، والأخلاق، والمبادئ الإنسانية (وسائل) إلى غاية غير شريفة فى حقيقتها ؛ فإن المجتمعات الإسلامية قد ظلت تهيمن عليها المفاهيم الأخلاقية المنبثقة عن الشعور الدينى الصحيح، وظلت هذه المفاهيم هى المتحكمة فى عالم الفكر، والأخلاق والقيم، وهى الراسخة فى ضمير الشعب المسلم[1]، وبالتالى فالذين كتبوا تاريخ الإسلام من خلال النظرة الميكافيللية قد تاهوا وتاه معهم كل من تبعهم (. . .) فالعمل الحضارى - وبعض السياسى - ظل مرتبطًا بالشريعة [2] .

---

(١) عبد اللطيف شرارة : الفكر التاريخى فى الأندلس ، ص : ٦٩ ، ٧٠ (بتصرف) نشر دار الأندلس ، بيروت .

(٢) المرجع السابق ، ص : ٧٠ ، ٧١ بتصرف .

العلم والعمل دعامتا العمل الإسلامى

وقد قام المجتمع الإسلامى - فى إطار الشريعة - على دعامتين أساسيتين تمثلان قوام التطور والبقاء . . . وهما :

- العلم . . .

- والعمل . . .

- والربط بين العلم والعمل هو الروح الحقيقية الفاعلة والمؤثرة . . .

- والعلم شمولى يضم ما ينفع الدنيا وما ينفع الآخرة . . . ولا شىء عند النظر الإسلامى الصحيح يسمى بعلوم الدين ، أو علوم الدنيا ؛ فكل علم نافع هو علم دين وعلم دنيا ، وكل علم ضار هو علم غير إسلامى ، ولن ينفع الدين ، ولن ينفع الدنيا ، بل إن (العلم الواحد) قد يكون - وفق منهجية معينة - علمًا إسلاميًا ، وبالتالى نافعًا للدين والدنيا ، وقد ينقلب نفسه إلى علم غير إسلامى إذا خضع لمنهجية جدلية ، أو جمد عند إطار معين ، أو أخذ حجمًا أكبر من حجمه فى إطار منظومة المعرفة الإسلامية ، وإشعاعاتها المحددة فى الحياة .

- إن علم الطب قد يكون علم دين عندما يلتزم بالمنهج والأخلاق والغاية وينفع الناس . . . بينما يصبح (علم الكلام) ، أو (علم الفقه) علم دنيا إذا حاد عن المنهج وفقد أخلاق الإسلام وغايات الإسلام ، ولم يعد نافعًا للناس ؛ بل أصبح تبديدًا لطاقتهم ، وترفًا فى فكرهم ، ومركبًا ذلولاً لأطماع الدنيا وأهواء الحكام .

وفى ضوء هذا الوعى بأهمية العلم الشمولى الذى ينظر فى النفس والآفاق ، ويقدر الله حق قدره . . .

وفى ضوء الربط بين العلم والعمل ، والإيمان بأن العمل ضرورة لا مناص منها ، وأنه داخل فى العبادة ، وفى عموم الهدف الأعلى للحياة الذى يحدده قوله - تعالى - : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وتمثلاً بسيرة الرسول ﷺ وصحابته الذين جمعوا بين العبادة والعمل والجهاد فى معادلة متكاملة منسجمة رائعة . . .

ـ فى ضوء هذا الوعى بقيمة العمل القائم على العلم، انطلق المسلمون يعمرون الكون، ويتفوقون فى الحرف والصناعات، ويزرعون ويتاجرون ويشتغلون بكل العلوم النافعة، أو بتعبيرهم الإسلامى« العمل الصالح» أى القائم على الصلاح والصلاحية، وبما أن العمل يستلزم لطبيعة أدائه معرفة الظروف والوسائل والإمكانات والغايات، ولا يستقيم له أن يكون صالحًا إذا كان ضربًا من الخبط فى الظلام أو الانسياح مع هوى أو وهم، أو عصبية [1] ؛ لأنه يستلزم ذلك فقد التزم المسلمون فى عملهم ـ فى حدود الممكن البشرى ـ بالمواصفات الإسلامية للعمل الصالح.

وهذه واحدة من المعالم الرئيسة فى تفسير الإسلام للتاريخ، وفى المنظومة التى يقيم عليها بناءه للحضارة وضماناته لاستمرارها : إنها تتلخص فى أن يعمل الإنسان بوحى من العقل، وفى ضوء المعرفة، على تحسين المسير وتفادى السوء، والقيمة الحقيقية إنما هى للعمل الصادر عن فكر نير فى سبيل غاية شريفة . . . [2] إنه الوحى والعقل، والصلاح والصلاحية، والعلم والعمل؛ فى نسيج واحد. . . .

ـ ولقد كان لمفكرى الإسلام على امتداد التاريخ يد طولى وأساسية فى نشر هذا الاعتقاد السائد اليوم، وهو : (إن التاريخ البشرى الناشئ عن تفاعل عدد لا يحصى من العقول الإنسانية، ينبغى أن يكون خاضعًا لقوانين بسيطة يمكن أن تدركها تلك العقول) [3] ، وبالتالى فقد كان لدى المسلمين نظرة عملية للتاريخ ترتبط بالفكر، وليست مجرد نظرة فلسفية هائمة أو حالمة، وهى نظرة عملية قائمة على ثوابت الوحى واجتهادات العقل.

وإذا كان القرآن كثيرًا ما يضيف إلى (الذين آمنوا) وصف العمل الصالح (وعملوا الصالحات) فإن المسلمين قرنوا العلم بالعمل فى الناحية الروحية،

(١) المرجع السابق، ص : ٣٦ .
(٢) المرجع السابق، ص : ٣٧ .
(٣) المكان السابق .

وكذلك امتازوا بتطبيق النظريات الكونية على التجارب العملية، وكانت هذه الخصلة القويمة فيهم نفحة من نفحات دينهم، فلم يمض عليهم ردح من الزمن حتى أصبحوا أئمة العلم والعمل فى الأرض [1]، وقد شهد لهم كبار الأجانب بهذه المكانة فقال العلامة الفرنسى (غوستاف لوبون) فى كتابه حضارة العرب :

«إن العرب مع ولوعهم بالأبحاث النظرية لم يهملوا تطبيقها على الصنائع، فقد أكسبت علومهم صنائعهم جودة عظيمة جدّا، وإننا وإن كنا لم نزل نجهل أكثر الطرائق التى سلكوها لذلك، فإننا نعرف نتائجها وآثارها، فنعرف مثلاً أنهم احتفروا المناجم، واستخرجوا منها الكبريت، والنحاس، والزئبق، والحديد، والذهب، وبرعوا فى الصياغة وصقل الفولاذ، وبرعوا فى كثير من فنون الصنائع براعة لم يلحق لهم شأو فيها للآن» [2]

ـ ولم يتخلف المجتمع الإسلامى ـ بعد أكثر من عشرة قرون من التفوق ـ إلا حين انفصل العلم عن العمل، ومن ثم أهمل العلم . . . وأهمل العمل؛ أما خلال قرون ما قبل التبعية والوقوع تحت ضغط الغزو الفكرى ومشروعات الإبادة الحضارية، فقد كانت الروابط الإسلامية تحكم المجتمع الإسلامى (مع وجود الهنات البشرية) على مستوى المسجد، ومستوى الجيران، ومستوى الأرحام، ومستوى القربى، ومستوى العائلات والقبائل، ومستوى الأحياء فى المدن، ومستوى الشعور الإسلامى الذى ينتظم الأمة الإسلامية كلها . . .

ونسيج هذه الروابط تجمعها شريعة حاكمة، تقوم على العلم والعمل والوحى والعقل، والتعاون والتكامل، وليس التنافر والصراع .

ومن عجب أنه بينما لم يحسن بعض المؤرخين فهم تاريخ المجتمعات الإسلامية، ولا النظر الدقيق لمحركاتها وإيجابياتها، ولا الوصول إلى تحليل سليم لمكوناتها وعناصرها الحية . . . . ولا التأريخ ليوم واحد كامل من أيام فرد مسلم، أو عائلة مسلمة، أو قرية مسلمة، منذ صلاة الفجر وشروق الشمس، وحتى تنام

(١) محمد فريد وجدى: مهمة الإسلام فى العالم، ص: ١٩٥، طبع الأزهر.
(٢) نقلاً عن المرجع السابق، ص: ١٩٦ .

هذه الأسرة بعد صلاة العشاء . . . إنهم لم يفعلوا ذلك، ويرصدوا نصيب شريعة الإسلام فى حياة المسلمين . . . أفرادًا أو جماعات . . . فى مستوى الالتزام الواعى - فى الحياة الاقتصادية - بالنظام الإسلامى فى المعاملات . . . وفى مستوى (المسجد) عبادات وثقافة وعلاقات اجتماعية . . . وفى مستوى الأسواق، ودور المحتسبين فيها . . . وفى مستوى (الكتاتيب والمساجد) والنشاطات العلمية الموجودة بها . . . وفى مستوى المسلم، وعلاقة الزوجة بزوجها والأبناء بآبائهم، والأرحام، والجيران . . . وفى مستوى الأحوال الشخصية، وتأثيرها فى بناء البيت المسلم، وفى صياغة أفراحه ونظام تكوينه للأسرة . . . وأيضًا فى إخضاع البيت المسلم لشريعة الإسلام فى شتى أحواله . . . عند الزواج، وعند الخلاف، وعند الموت، وما يتبعه من ميراث إسلامى . . . وفى مستوى الأخلاق والروح العامة التى تحكم هذا المجتمع وتصوغ أطره وعلاقاته . . . إلا أنهم ذهبوا يحكمون على الحضارة الإسلامية من خلال رصد عاجز لشريحة واحدة، لا ترتفع فاعليتها لأكثر من عُشْر فاعلية الشرائح الأخرى التى صنعت حضارتنا، وهى شريحة الحكام . . .

بينما هذا - بصفة إجمالية - على مستوى المؤرخين والمنظِّرين المسلمين، نجد كثيرًا من المؤرخين الأوروبيين (المنصفين) قد أحسنوا رصد الحياة الاجتماعية وأثر الإسلام فيها، واعترفوا بالمكانة الكبيرة والأساسية والقوية للشريعة الإسلامية فى حياة المسلمين خلال تاريخ الحضارة الإسلامية الطويل . . . يقول المؤرخ الكبير (ول ديورانت) : كان المسلمون كثيرى التفكير فى ربهم، وكانت مبادئهم الأخلاقية، وشريعتهم، وحكومتهم قائمة كلها على أساس الدين. والإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويتطلب الجزء الثانى من هذا الأساس الإيمان بالقرآن، وبكل ما جاء به من أوامر ونواه، والمسلمون الصالحون لا يعملون بما ورد فى القرآن وحده؛ بل يعملون أيضًا بالأحاديث والسنن النبوية التى احتفظ بها علماؤهم على مر الأجيال والقرون ؛ ذلك أن المسلمين قد يواجهون على مر الزمن مسائل خاصة بالعقائد، والعبادات، والأخلاق، والتشريع، لا يجدون لها جوابًا صريحًا فى القرآن. كذلك وردت فى القرآن آيات متشابهات يخفى معناها على كثير من العقول، وتحتاج إلى إيضاح، ولهذا كان من المفيد أن يعرف المسلمون ما فعله

النبى أو الصحابة، وما قالوه فى أمثال هذه الموضوعات، ومن أجل ذلك وجَّه بعض المسلمين عنايتهم إلى جمع هذه الأحاديث، وأنشئوا مدارس للحديث فى مختلف المدن يلقون فيها دروسًا عامة فى الحديث والسنن النبوية [1].

ويعزو (ديورانت) سبب إسلام الشعوب المختلفة إلى تسامح المسلمين وتمسكهم العملى أمامهم بدينهم، فيقول: وعلى الرغم من خطة التسامح الدينى التى كان ينتهجها المسلمون الأوائل، أو بسبب هذه الخطة؛ اعتنق الإسلام معظم المسيحيين وجميع الزرادشتيين والوثنيين إلا عددًا قليلاً منهم، وكثيرون من اليهود فى آسيا، ومصر وشمال إفريقيا، فقد كان من مصلحتهم المالية أن يكونوا على دين الطبقة الحاكمة، وكان فى وسع أسرى الحروب أن ينجوا من الرق إذا نطقوا بالشهادتين ورضوا بالختان، واتخذ غير المسلمين على مر الزمن اللغة العربية لسانًا لهم، ولبسوا الثياب العربية، ثم انتهى الأمر باتباعهم شريعة القرآن واعتناق الإسلام، وحيث عجزت الهلينية عن أن تثبت قواعدها بعد سيادة دامت ألف عام، وحيث تركت الجيوش الرومانية الآلهة الوطنية ولم تغلبها على أمرها، وفى البلاد التى نشأت فيها مذاهب مسيحية خارجة على مذهب الدولة البيزنطية الرسمى؛ فى هذه الأقاليم كلها انتشرت العقائد والعبادات الإسلامية، وآمن السكان بالدين الجديد، وأخلصوا له، واستمسكوا بأصوله إخلاصًا واستمساكًا أنساهم بعد وقت قصير آلهتهم القدامى، واستحوذ الدين الإسلامى على قلوب مئات الشعوب فى البلاد الممتدة من الصين، وإندونيسيا، والهند، إلى فارس، والشام، وجزيرة العرب، ومصر، وإلى مراكش، والأندلس، وتملك خيالهم، وسيطر على أخلاقهم، وصاغ حياتهم، وبعث فيهم آمالاً تخفف عنهم الحياة ومتاعبها، وأوحى إليهم العزة والأنفة [2]

- وبعد أن يخلص (ديورانت) من خلال سرده التاريخى المطول المتعمق؛ ينتهى إلى رأى تاريخى مقارن فى الأثر الإيجابى الفريد للشريعة الإسلامية فى الحضارة... فيقول:

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣: ١١٦.
(٢) المرجع السابق ١٣: ١٣٣.

«ولا يسعنا إلا أن نسلم - مع بعض التحفظات - بأن الخلفاء الأولين من أبى بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموفقة للحياة الإنسانية فى رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحكام فى التاريخ كله، ولقد كان فى مقدورهم أن يُصادروا كل شىء، أو أن يُخرِّبوا كل شىء كما فعل المغول أو المجر، أو أهل الشمال من الأوروبيين ؛ لكنهم لم يفعلوا هذا ؛ بل اكتفوا بفرض الضرائب. ولما فتح عمرو مصر أبى أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار عليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين، وأيده الخليفة فى هذا الرأى وأمره أن يتركها فى أيدى الشعب يتعهدها فتثمر. وفى زمن الخلفاء الراشدين مُسحت الأراضى، واحتفظت الحكومة بسجلاتها، وأنشأت عدداً كبيراً من الطرق وعنيت بصيانتها، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها»[1].

ومع تقديرنا لما كتبه ديورانت، وما كتبه غيره من أمثال أرنولد توينبى (ت١٩٧٥م) فى كتابه (موجز دراسة للتاريخ) وغوستاف لوبون (ت ١٩٣٢م) فى كتابه حضارة العرب[2]، وآدم متز (ت ١٩١٧م) فى تأريخه لحضارة العرب والمسلمين فى القرن الرابع الهجرى (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى)... فإن ما كتبه هؤلاء - ومن فى مستواهم - لا يرقى إلى ما كتبه سير توماس أرنولد (١٨٦٤ - ١٩٣٠م) فى كتابه الرائع (الدعوة إلى الإسلام)...

ولعل محاولتى الدكتور حسين مؤنس فى كتابيه (عالم الإسلام) و (الإسلام الفاتح) هما - فى الجانب الإسلامى - المحاولتان القريبتان من المنهج الصحيح لتاريخ حضارتنا... وهما - ولا سيما ثانيتهما - تسيران على خطى محاولة أرنولد فى تاريخ الدعوة إلى الإسلام... وليس فى تاريخ بعض الحروب، أو بعض الحكام، أو بعض صور النزو على السلطة من بعض قطاع الطرق والمزورين لإرادات الشعوب، والمزيفين لحقائق التقدم وقوانين التحضر !!

إنها رحلة طويلة... رحلة كتابة تاريخنا الحضارى، بعيداً عن المنطقة البشرية ذات الصورة المعتمة التى أتاحت الفرصة لبعض المغرضين كى يظلموا هذا

(١) المرجع السابق ١٣ : ١٥٠، وانظر موسوعة المستشرقين لعبد الرحمن بدوى، ص: ٥٤٤، ط لبنان.
(٢) انظر: مقدمة كتاب فلسفة التاريخ لعادل زعيتر، دار المعارف - مصر، ١٩٤٥م.

التاريخ . . حقّا إنها منطقة مظلمة . . . لكنها محددة ، وثمة مساحات مظلمة تفوقها أضعافًا مضاعفة فى كل تواريخ البشرية . . . لكن تفرد حضارتنا أنها فى مساحتها الوضيئة الأخرى ـ الأكبر والأشمل ـ لم يستطع أن يصل أى تاريخ إلى مستوى إنسانيتها ورحمتها وعدلها ، وتوازنها ، وشعورها بالمسؤولية الحضارية تجاه البشرية .

ـ لقد كانت حضارة الرحمة ، والعدل ، والعلم ، والعقل ، والعمل ، والضمير ، والقلب . . .

ـ وبغير روح وعقل وعمل لن تقوم حضارة إسلامية ، ولا سيما فى عصرنا الحديث !!

ـ والتحدى الذى يواجهنا اليوم هو أن نعمل كما يعملون هناك فى اليابان ، وأوروبا ، وأمريكا ، وكوريا (عشر ساعات فى اليوم) . . . ونمزج عملنا المادى بعناصر حضارتنا الإسلامية بمعادلاتها المتفردة . . . وفى مشكاتها الربانية . . . ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور : ٣٥] .

* * *